

الباب الثالث

الدفاع عن الاسلام: الجهاد المسلح

- الفصل الحادي عشر: معركة بدر الكبرى (325 _ 350).
- الفصل الثاني عشر: معركة أُحد (351 _ 368).
- الفصل الثالث عشر: غزوة الخندق (369 _ 384).
- الفصل الرابع عشر: غزوة خيبر (385 _ 398).
- الفصل الخامس عشر: واقعة ذات السلاسل (399 _ 416).
- الفصل السادس عشر: فتح مكة (417 _ 436).
- الفصل السابع عشر: غزوة حُنين (437 _ 454).
- الفصل الثامن عشر: غزوة تبوك (455 _ 480).
- الفصل التاسع عشر: نظرة شاملة لحروب الامام (ع) مع النبي (ص) (481 _ 504).

الفصل الحادي عشر

معركة بدر الكبرى

علي (ع) ومعركة بدر الكبرى * صور من معركة بدر * الدلالات العلمية للنصوص: 1- علي (ع): قتل النصف ممن قُتل ببدر. أ- المغزى العسكري. ب- المغزى النفسي. ج- آثار قتل النصف: الرُعب! د- دور الملائكة في المعركة. 2- الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للمعركة: أ- معركة بدر والظرف القانوني. ب- معركة بدر واقتصاد مكة. ج- معركة بدر: امتحان المسلمين.

علي (ع) ومعركة بدر الكبرى

بدر اسم بئر على بعد 160 كيلو متراً عن المدينة. وقت المعركة المسماة باسم ذلك البئر، في السنة الثانية للهجرة يوم الجمعة 17 من شهر رمضان المبارك. وقبل وقوع القتال انزل الله تعالى على نبيه (ص): (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا...)¹. فبعث (ص) الى المشركين ينهاهم عن القتال، فوافق عتبة بن ربيعة وقال: ما رد هذا قومٌ فافلحوا... يا معشر قريش انّ محمداً ابن عمكم فخلوه والعرب. فان يك صادقا فأنتم أعلى عيناً به، وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره. فأبى ابو جهل ولم يقبل بأقل من القتال.

وكان علي (ع) حامل الراية في اول حرب يشارك فيها مع رسول الله (ص)، وهي اول حروب النبي (ص) أيضاً. وكان عمره (ع) يومذاك خمساً وعشرين سنة. والظاهر ان المعركة وقعت بعد عقد علي (ع) على فاطمة (ع) وقبل البناء بها.

بداية المعركة يصفها لنا رافع مولى رسول الله (ص) قال: «لما اصبح الناس يوم بدر اصطفت قريش، امامها: عتبة بن ربيعة، واخوه شيبه، وابنه الوليد. فنادى عتبة رسول الله (ص): يا محمد اخرج لنا أكفأنا من قريش فبرز اليهم ثلاثة من شباب الانصار. فقال لهم عتبة: من أنتم؟ فانتسبوا. فقال: لا حاجة لنا في مبارزتكم انما طلبنا بني عمنا، فقال رسول الله (ص) للانصار: ارجعوا الى موافقكم. ثم قال: قم يا علي، قم يا حمزة، قم يا عبيدة، قاتلوا على حقكم الذي بعث الله به نبيكم. فقاموا فصفوا في وجوههم وكان على رؤوسهم البيض² فلم يعرفوهم، فقال عتبة: من انتم يا هؤلاء؟ تكلموا، فان كنتم اكفأنا قاتلناكم. فقال حمزة بن عبد المطلب: انا حمزة بن عبد المطلب، انا اسد الله واسد رسوله. فقال عتبة: كفاء كريم. وقال علي بن ابي طالب. وقال عبيدة: انا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب. فقال عتبة لابنه الوليد: قم يا وليد ابرز لعلي: وكان اصغر الجماعة سناً. فاختلفا بضربتين أخطأت ضربة الوليد ووقعت ضربة علي (رضي الله عنه) على اليد اليسرى من الوليد فأبانيتها، ثم ثنى عليه باخرى فخرّ قتيلاً³. وبارز حمزة عتبة فقتله حمزة (رض). وبارز عبيدة شعبة، فأصاب سيف شعبة عضلة ساق عبيدة فقطعها فاستنقذه علي (ع) وحمزة (رض) وقتلا شيبه، وحمل عبيدة فمات بالصفراء⁴.

(¹) سورة الانفال: آية 61.

(²) البيض: الخوذة التي تقي الرأس سيوف الاعداء.

(³) «نور الابصار» - الشبلنجي ص 100.

(⁴) «نور الابصار» ص 100.

وكان المهاجرون «يوم بدر سبعة وسبعين رجلاً وكان الأنصار مائتين وستة وثلاثين رجلاً، وكان صاحب راية رسول الله (ص) علي بن ابي طالب (ع)»⁵. فيكون مجموع المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً. وكان معهم فرسان وسبعون بعيراً. فكان الرجلان والثلاثة يتعاقبون على بعير واحد. وكان المشركون تسعمائة وخمسين رجلاً بصحبة مائتي فرس وسبعمائة بعير.

من الناحية النفسية والعسكرية كانت معركة بدر الكبرى اعظم غزاة غزاها رسول الله (ص) وأشدها نكابة في المشركين «قتل فيها سبعون من المشركين قتل علي (ع) نصفهم وقتل المسلمون والملائكة النصف الآخر...»⁶. وانجلى المعركة عن سبعين اسيراً من المشركين بالاضافة الى سبعين قتيلاً منهم وفرّ الباقون. واستشهد من المسلمين اربعة عشر رجلاً. قال تعالى مخاطباً المسلمين: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)⁷.

وبالرغم من اختلاف الروايات في عدد الذين قتلهم علي (ع) يوم بدر، إلا ان المرجح تأريخياً ان امير المؤمنين (ع) قتل النصف ممن قُتل ببدر أو قريباً منه، وكانوا من اكابر قريش وقادتهم. عندها نادى مناد من السماء يوم بدر: «لا سيف الا ذو الفقار، ولا فتى الا علي»⁸. يقول ابن شهر آشوب: «وجدت في كتاب المقفع قول هند:

أبي وعمي وشقيق بكري
أخي الذي كان كضوء البدر
بهم كسرت يا علي ظهري⁹

وكان من جملة من قتلهم علي (ع) يوم بدر من بني امية:

- 1- حنظلة بن ابي سفيان اخو معاوية.
- 2- العاص بن سعيد العاص.
- 3- عقبة بن ابي معيط.
- 4- الوليد بن عتبة اخو هند وخال معاوية.
- وقتل (ع) ايضاً:
- 5- ابا قيس بن الوليد أخا خالد بن الوليد.

(⁵) «تاريخ الطبري» ج 2 ص 431.

(⁶) «شرح فحج البلاغة» ج 1 ص 8. ويُردّ عليه ان الملائكة لم تقتل مشركاً، وكان دورها بث الرعب بين المشركين.

(⁷) سورة آل عمران: آية 123.

(⁸) «كفاية الطالب» - الكنجي باسانيد متعددة عن الامام الباقر (ع) وذكر ان اسم الملك هو رضوان ص 277. ورواه محب الدين الطبري في «ذخائر العقبى» ثم قال: «ذو

الفقار اسم سيف النبي (ص) سُمي بذلك لانه كانت فيه حفر صغار. قال ابو عبيد: والمفقر من السيوف: الذي في منته جزوز» ص 74.

(⁹) «مناقب» ابن شهر آشوب ج 3 ص 121.

واشترك في قتل:

6- عتبة وهو جد معاوية وهو اموي ايضاً.

وبذلك فقد قتل الامام (ع) في بدر وحدها من المشركين جد معاوية وخاله واحاه وبعضاً من عشيرته. وكان لذلك اثر بالغ في نفس ابن ابي سفيان بالخصوص والأمويين عموماً ضد امير المؤمنين (ع)، كما سنلمس ذلك لاحقاً في الفصول القادمة باذنه تعالى.

صور من معركة بدر:

وقد تضمّنت واقعة «بدر» لقطات وصور وشواهد كثيرة تدلّ على المثل التي يستطيع ان يخلقها الاسلام، ومقدار التضحيات التي يستطيع ان يقدمها المؤمنون به، ومن ذلك:

1- كان الآباء يقاتلون أبناءهم، والاخوة اخوتهم. فكان حمزة مع رسول الله (ص) وكان اخوه العباس مع المشركين. وكان علي بن ابي طالب (ع) مع رسول الله (ص) وكان اخوه عقيل بن ابي طالب مع المشركين. وكان عبيدة بن الحارث مع رسول الله (ص) وكان اخوه نوفل بن الحارث مع المشركين. وكان ابو بكر مع المسلمين وابنه عبد الرحمن يقاتل مع المشركين. وكان ابو حذيفة مع المسلمين وابوه عتبة مع المشركين. وقد اوردت الكتب التاريخية ان العباس وعقيل ونوفل قد اسلموا، ولكن المشركين اكرهوهم على الخروج يوم بدر. قال العباس: يا رسول الله اني كنت مسلماً، ولكن القوم استكروهني. فقال (ص) له: الله اعلم باسلامك، اما ظاهر امرك فقد كان علينا.

2- ان علياً (ع) رأى أخاه عقيلاً مع اسرى المشركين، فتجاهله ولم يلتفت اليه. فقال له عقيل: يا ابن ام والله لقد رأيت مكاني. فتركه وحاد عنه، وهو اخوه لأمه وابيه.

3- ان حارثة بن سراقة كان مع رسول الله (ص) فقتل، فجاءت امه وقالت: يا رسول الله اخبرني عن ابني حارثة، ان كان في الجنة صيرت، والآن ملئت الدنيا نياحة، فقال لها رسول الله (ص): «ويحك أهبلت؟ انما جنان ثمان، وان ابنك اصاب الفردوس الاعلى». فرضيت واطمأنت بقضاء الله سبحانه.

4- لما تهيأ المشركون للقتال قال رسول الله (ص) لاصحابه: قوموا الى جنة عرضها السماوات والارض. فقال عمير بن الحمام الانصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والارض! قال (ص): نعم، قال: بخ بخ... قال (ص): وما حملك على قول بخ بخ. قال: رجاء أن اكون من اهلها. فقال له النبي (ص): انك من اهلها. ولما سمع البشارة بالجنة رمى من يده تمرات كان يأكلها، وقال: لئن انا حييت حتى اكل تمراتي هذه انما لحياة طويلة. فبرز الى القتال وهو يقول:

ركضا الى الله بغير زاد
والصبر في الله على الجهاد
الا التقى وطلب المعاد
وكل زاد عرضة النفاذ
غير التقى والبر والرشاد

وما زال يقاتل، حتى استشهد.

الدلالات العلمية للنصوص

كانت معركة بدر الكبرى تحمل دلالات عظيمة في المواجهة المتفاقمة بين الايمان والشرك. فقد كانت تلك المعركة تحمل مفاتيح الانتصار او الهزيمة لكلا الطرفين المتصارعين. وحتى ان الرعب الذي دبّ في صفوف المشركين من سيف رسول الله (ص) وسيف علي (ع) وسيوف بقية المسلمين، والملائكة التي ساهمت في تكثير عدد المسلمين، كانت له ظروفه النفسية والقانونية التي تفصح عن قوة الايمان الخارقة واستحالة التعايش السلمي بين الشرك والايمان.

1- علي (ع): قتل النصف ممن قُتل ببدر:

لقد افرغ الامام (ع) طاقته البطولية في اول معركة يخوضها ضد الشرك. فقد بثّ في ساحة المعركة رعباً نفسياً حقيقياً في قلوب المشركين. وكان (ع) اداة السماء في القاء الرعب في قلوبهم. فغيّرت تلك البطولة سلوك المشركين وبدلته من هجوم وشيك ضد المسلمين الى فرار اكيد وهزيمة نكراء وتحطيم لادارة الشرك والوثنية.

أ- المغزى العسكري:

ان التوازن التسليحي بين جيشي المشركين والمسلمين _ على قلة عدد المسلمين _ يدعونا الى التأمل في اهمية الشجاعة الفردية ودورها الحاسم في نتيجة المعركة. فقد كان الفرّس والسيف والرمح والدرع ادوات المعركة واسلحتها. وتلك الاسلحة كانت تعطي المعركة نوعاً من الثبات الاستراتيجي، وتكشف عن شجاعة المقاتلين وبراعتهم في حوض القتال ببسالة. وهنا كان دور علي (ع) في المعركة حاسماً، لان بطولته الفريدة كانت ركناً اساسياً في انتصار المسلمين.

فلا شك ان قتله ذلك العدد الكبير من ابطال المشركين، كان لا بد ان يقلب التوازن العسكري المتعارف بين الفريقين. ذلك لان تلك البطولة الفريدة ادخلت عاملاً جديداً على ساحة المعركة، وهو العامل النفسي. فالرعب النفسي الذي اصاب المشركين يوم بدر جعلهم يفرون من ساحة المعركة مذعورين.

وقد اشار القرآن الكريم في مواطن متعددة _ في بدر وغيرها _ عن انزال الرعب في قلوب المشركين من قبل الله سبحانه وتعالى. ولا شك ان لله جنوده في بثّ الرعب فيهم. فكان (ع) احد هؤلاء الجنود المكلفين بتلك المهمة الشاقة. فقال سبحانه وتعالى في خصوص غزوة أحد عندما حثهم على طاعته ونبههم على ان هزيمة المسلمين كانت من قبل انفسهم، لا منه عزّ وجلّ: (سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا...) ¹⁰. وفي خصوص غزوة بدر: (... سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ...) ¹¹. وفي خصوص واقعة الخندق وما اعقبها من امر بني قريظة من اليهود: (... وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا) ¹². وفي خصوص اجلاء بني النضير من اليهود لما نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين، ومقاتلة المسلمين لهم: (... فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ...) ¹³. فكان وعداً جميلاً من الله سبحانه بان المؤمنين سينصرون بالرعب، وقد كان رسول الله (ص) يذكر ذلك فيما حباه الله تعالى وخصه به من بين الانبياء (ع).

فغير ذلك العامل النفسي ميزان المعركة، مع ان جيش المسلمين لم يتجاوز ثلث جيش المشركين مع قلة العدة وشحّة الحديد. ولا شك ان تلك الشجاعة _ مضافاً الى عوامل أُخرى كالوعد الالهي بالنصر، ونزول الملائكة لتكثير عدد المسلمين في عيون الاعداء _ ولّدت عند المقاتلين حماساً واندفاعاً نحو الاستمرار في القتال حتى النصر النهائي على الشرك في الارض. وقلة عدد المقاتلين في الطرف الاسلامي، والامداد الالهي عبر نزول الملائكة، لم يبلغ اهمية الحرب واحقيتها.

بل ان معركة بدر الكبرى كانت حرباً حتمية ضد المشركين كان لا بد لها ان تقع. ذلك لانها كانت حالة دفاعية ضد هجوم وشيك من قبل قريش، وكانت عقوبة على جرائمهم في عبادة الاوثان، وكانت تعويضاً للمسلمين عما خسروه في مكة من مال ونفس وعرض. ولا شك ان انتصار المسلمين في معركة بدر الكبرى فتح البوابة لتثبيت دين التوحيد على الارض، واقامة العدالة في العالم.

¹⁰ (سورة آل عمران: آية 151).

¹¹ (سورة الانفال: آية 12).

¹² (سورة الاحزاب: آية 26).

¹³ (سورة الحشر: آية 2).

وكانت اخلاقية رسول الله (ص) المستمدة من الدين كفيلة بتحقيق ذلك، خصوصاً اذا ما علمنا بان رحمة الاسلام وتعاليمه واخلاقه في القتال كان قد سجلها التاريخ بكثير من الاكبار والاجلال. فالتاريخ عندما يتحدث عن المعارك فانه يمرّ على عللها واسبابها وبادياتها ونهاياتها بشكل سريع عابر، ولكنه يتوقف عند اخلاقية الاطراف المتحاربة. فيدرس سلوك المتحاربين واخلاقيتهم على ساحة المعركة. فالعظمة في شخصية المقاتل تتبلور عندما يتصرف ذلك المقاتل بوحى عقيدته، تحت ظل السيوف. بمعنى ان السيف اذا كان مرفوعاً على اساس الحق، فانه يكون سيفاً عادلاً لا يظلم ولا يجحف ولا ينتهك حرمة الناس. وقد كان علي (ع) قمة في ذلك. فقد كان يرفع السيف عن مدبرهم، ولا يجهب على جريحهم، ولا يقاتل الا طغاهم واعاظم مجرميهم.

ولذلك فان قتله (ع) للنصف ممن قُتل في بدر قد احدث ضجة نفسية عظيمة في صفوف المشركين وقلوبهم لم يحمدا صداها ابداً. فقد كان ظهوره (ع) بتلك القوة الخارقة وهو في فورة الشباب، قد خلق صورة حقيقية من الرعب والقلق في نفوس المقاتلين عند عبدة الاوثان والاصنام. وبقيت تلك الصورة المرعبة شاخصة في كل المعارك التي خاضها فيما بعد. فمن الذي يواجه علياً (ع) فيفري جلده ويدخله جحيم الدنيا قبل الآخرة؟

ب- المغزى النفسي:

ان الحرب النفسية ضد العدو في ساحة القتال او حولها لا تقتصر على الدعاية الاعلامية. فالهدف من الحرب النفسية هو التأثير على رأي العدو وسلوكه في المعركة دون استخدام الموارد العسكرية والسياسية والاقتصادية. وتعتبر آخر، ان هدف الحرب النفسية هو اشعار العدو بان الجيش المقابل يمتلك اسلحة مادية وغير مادية تستطيع ان تحقق نصراً حاسماً في تلك المعركة. فكيف يستطيع المسلمون في تلك اللحظات الحاسمة اشعار العدو بانهم يمتلكون سلاحاً خارقاً يستطيع ان يحقق نصراً حاسماً عليهم؟ لا شك ان ذلك يتطلب امرين: **الاول:** سلاح غير منظور قادر على محاربة العدو حرباً نفسية شرسة، وذلك بتكثير عدد المقاتلين في اعين العدو. فكانت ملائكة الرحمن التي ارسلها الله سبحانه، و اشار لها الذكر الحكيم بالقول: (... إذ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)¹⁴.

(¹⁴) سورة الانفال: آية 9.

الثاني: سلاح منظور يراه العدو ويلمسه ويجسّ بعمق آثاره ومقتضياته، وهو علي بن ابي طالب (ع) البطل الذي ليس له مثيل.

فقد كانت البطولة الخارقة للامام (ع) احدى الوسائل المهمة لتلك الحرب النفسية. فقد قلبت بطولة الامام (ع) سلوك ابطال المشركين وجعلتهم يهزمون امامه كالنمور المحروحة الكسيرة. فالبطولة تحت هذا العنوان، كانت عملاً رمزياً خارقاً قام به علي (ع) من اجل اقناع الطرف المقابل بالفرار من ساحة المعركة. وقد وقع ذلك فعلاً، فبدأت فرسان العرب من المشركين تسابق الريح حتى لا يمسه حسام علي بن ابي طالب (ع).

وهذه الحرب النفسية افضل من الدعاية المنظمة التي تستخدمها الجيوش بأمل تغيير سلوك العدو. ذلك لان الخطة التي استخدمها الامام (ع) لم تحتج الى عيون وجواسيس تنظر للعدو، ولم تحتج الى عمليات انتقام وحشية من اجل ارعابه، ولم تحتج الى عمليات لتنظيف دماغه او غسله. بل كانت شجاعة فائقة لبطل واحد، وضعت المعركة النفسية في الاطار الصحيح. فتلك المعركة النفسية كانت بحاجة الى سيف واحد وهو سيف ذو الفقار، والى فتى شجاع واحد وهو علي (ع) وعندها كانت المعركة النفسية في بدر الكبرى تحاول افساد علل المشركين الذين خرجوا الى تلك الآبار وفي قناعاتهم اهم سيهزمون المسلمين هزيمة قاسية سوف تتحدث عنها العرب مئات السنين.

ولكن سيف الامام (ع) قلب المعركة النفسية ضداهم لانه (ع) بقتل النصف ممن قُتل ببدر قد حطم ارادتهم ودمر نظامهم العسكري عبر قتله النخبة من ابطالهم. وبطبيعة الحال، فان للحرب النفسية دوراً مؤثراً وفعالاً في تغيير موازين المعركة وقلبها ضد العدو. وفي ضوء هذا الاصل نستطيع ترتيب النقاط التالية:

1- ان الحرب النفسية تعدّ اليوم السلاح الرابع بعد سلاح الجو والبحر والبر، لانها اثبتت فعاليتها في تغيير سلوك العدو ونفسيته بما يخدم مصالح الطرف المحارب.

2- كانت البطولة الشخصية في ذلك الزمان اهم الاسلحة والادوات في الحرب النفسية الناجحة. اما اليوم، فبسبب تقدم وسائل الاتصالات، فان الحرب النفسية اصبحت تتخذ أشكالاً أخرى وانماطاً مختلفة. الا ان الهدف في كليهما ينحصر في دائرة واحدة وهي تغيير سلوك العدو. وهذا هو ما حققه سيف علي (ع) في بدر.

3- يمكن قياس فعالية الحرب النفسية ضد العدو عن طريق احصاء حناجر الفارين من المشركين وصيحاتهم في ساحة المعركة في بدر. كما يمكن قياس فعالية الحرب النفسية الحديثة عن طريق تغير الرأي العام واحساسه بالاحباط والهزيمة النفسية.

وكانت الخصائص البطولية للامام (ع) في عموم الحرب النفسية ضد المشركين تتضافر في ثلاثة وجوه:
الاول: معرفته الدقيقة بأفراد العدو من النخبة، وضبطهم في ساحة المعركة لمصارعتهم. ولنطلق عليه اصطلاح «تحدد الهدف»، كمبارزته الوليد بن عتبة، والعاص بن سعيد بن العاص، وحنظلة بن ابي سفيان وطعيمة بن عدي، ونوفل بن خويلد.

الثانية: الحب والمواظ والاشعار التي كان يستخدمها (ع) في زعزعة ثقة العدو بنفسه، في مواطن أخرى بالاضافة الى بدر. مثل قوله لعمر بن عبد ود في وقعة الاحزاب:

لا تعجلنّ فقد انا ك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نبهة وبصيرة والصدق منجا كل فائز
اني لارجو ان اقيم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزائز¹⁵

وقوله (ع) عند مبارزة مرحباً:

انا الذي سمّتي امي حيدرة كليث غابات كرية المنطرة
أوفيهم بالصاع كيل السندرة¹⁶

وقوله (ع) عند مبارزة ابي جرول يوم حنين:

قد علم القوم لدى الصباح ابي لدى الهيجاء ذو نصح¹⁷

ولنطلق عليه اصطلاح «زعزعة الهدف».

الثالث: الهجوم على العدو بكل بسالة، بدل الانتظار من اجل الدفاع. فالهجوم هو الذي يحقق الوصول الى الهدف وتحقيق المطلب بقتل العدو.

ففي «الارشاد» للشيخ المفيد (ت 413 هـ) ان امير المؤمنين (ع): «بارز العاص بن سعيد بن العاص بعد ان احجم عنه من سواه فلم يلبث ان قتله، وبرز اليه حنظلة بن ابي سفيان فقتله، وبرز اليه بعده طعيمة بن

¹⁵ «المستدرک علی الصحیحین» باسناده عن ابن اسحاق ج 3 ص 32 - 33.

¹⁶ «مسند احمد» ج 4 ص 52 رواه احمد باسناده عن سلمة.

¹⁷ «الغزوات» - القدي باسناده عن سعيد بن المسيب عن احد مشركي حنين ص 107. والرواية مشهورة، ولكن لم يتسن لنا العثور على مصدرها الاصلی.

عديّ فقتله. وقتل بعده نوفل بن خويلد وكان من شياطين قريش، ولم يزل يقتل واحداً منهم بعد واحد حتى أتى على شطر المقتولين منهم وكانوا سبعين رجلاً، تولّى كافة من حضر بدمراً من المسلمين مع ثلاثة آلاف من الملائكة المسومين قتل الشطر منهم¹⁸، وتولّى امير المؤمنين (ع) قتل الشطر الآخر وحده.

وفي «الارشاد» أيضاً: قد اثبتت رواة العامة والخاصة معاً أسماء الذين تولّى امير المؤمنين (ع) قتلهم بيد من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك واصطلاح. فكان ممن سمّوه: الوليد بن عتبة كما قدمنا وكان شجاعاً جريئاً وقاحاً فتاكاً تماهه الرجال. والعاص بن سعيد وكان هولاً عظيماً تماهه الابطال، وهو الذي حاد عنه عمر بن الخطاب. وطعيمة بن عديّ بن نوفل وكان من رؤوس اهل الضلال. ونوفل بن خويلد وكان من اشد المشركين عداوة لرسول الله (ص)، وكانت قريش تقدمه وتعظمه وتطيعه، وهو الذي قرن ابا بكر وطلحة قبل الهجرة بمكة وأوثقهما بحبل وعذبهما يوماً الى الليل حتى سُئل امرهما. ولما عرف رسول الله (ص) حضوره بدمراً سأل الله ان يكفيه امره فقال: اللهم اكفني نوفل بن خويلد، فقتله امير المؤمنين (ع).

وقتل (ع) أيضاً: زمعة بن الاسود، والحارث بن زمعة، والنظر بن الحارث بن عبد الدار، وعمير بن عثمان بن كعب بن تيم عم طلحة بن عبد الله، وعثمان ومالك ابني عبيد الله اخوي طلحة بن عبيد الله، ومسعود بن ابي امية بن المغيرة، وقيس بن الفاكه بن المغيرة، وحذيفة بن ابي حذيفة بن المغيرة، وأبا قيس بن الوليد بن المغيرة¹⁹، وحنظلة بن ابي سفيان، وعمرو بن مخزوم، واما منذر بن ابي رفاعه، ومنبه بن الحجاج السهمي، والعاص بن منبه، وعلقمة بن كلدة، واما العاص بن قيس بن عديّ، ومعاوية بن المغيرة بن ابي العاص، ولوذان بن ربيعة، وعبد الله بن المنذر بن ابي رفاعه، ومسعود بن امية بن المغيرة، وحاجب بن السائب بن عويمر، وأوس بن المغيرة بن لوذان، وزيد بن ملبص، وعاصم بن ابي عوف، وسعيد بن وهب حليف بني عامر، ومعاوية بن [عامر بن] عبد القيس، وعبد الله بن جميل بن زهير بن الحارث بن اسد، والسائب بن مالك، واما الحكم بن الاحنس، وهشام بن ابي امية بن المغيرة.

فذلك خمسة وثلاثون رجلاً سوى من اختلف فيه او شرك امير المؤمنين (ع) فيه غيره.

وليس غريباً ان يقول اسيد بن ابي اياس شعراً يجرّض مشركي قريش على علي (ع) كما ذكره صاحب

«الارشاد» و«المناقب»:

في كلّ مجمع غاية أجزاكم
جزعٌ أبرّ على المذاكي القرّح
لله درّكم ألما تنكروا
قد ينكر الحرّ الكريم ويستحي

(¹⁸) لم تقتل الملائكة اهداً كما ذكرنا ذلك، وانما كانت وظيفتهم تكثير سواد المسلمين من اجل ارباب العدو.

(¹⁹) وهو اخو خالد بن الوليد. اما الثلاثة الذين قتلوا من آل «المغيرة» فهم ابناء اعمامه.

ذبحاً وقتلة قعصة لم تذبح	هذا ابن فاطمة الذي أفناكم
فعل الذليل وبيعة لم تريح	أعطوه خرجاً واتقوا تضريه
في العضلات وأين زين الاطح	أين الكهول وأين كل دعامة
في السيف يعمل حده لم يصفح	أفناهم قعصاً وضرباً يفترى

ج- آثار قتل النصف: الرعب!!

قال سبحانه وتعالى وهو يتوعد الكافرين: (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ)²⁰. وهو وعدٌ جميل للمؤمنين بأنهم سينصرون بالرعب.

وحالة الرعب تعدُّ سلوكاً دفاعياً من قبل الانسان اذا واجه موقفاً هائلاً، وعندها يتحفز فيه جهازه العصبي ويتزلزل. فالرعب هو حالة نفسية يختبرها الانسان الخائف لاجتناب الموت عبر الفرار او الهيام الاعصاب او الخلط على اقل التقادير. فالرعب في ساحة المعركة مرتبط بالاحساس بالخوف من المصير المجهول الذي سيواجه ذلك المرعوب.

وعندما يدبّ الرعب في طرف منكسر حريباً، فإنّ الدافع نحو القتال سينكسر ويتشتت الجمع وتنحل فلوله. وأول ما يفكر به الجندي عند شعوره بالهزيمة النفسية، هو الفرار من ساحة المعركة. والفرار من الساحة يعني التخلي عن كل مستلزمات المقاتلة، وعندها تفتح ابواب الانتصار للطرف المقابل. وما حصل في معركة بدر هو صورة حقيقية لهذا المنظر الذي لا يتكرر غالباً في المعارك. فبعد مقتل سادة قريش وأبطالهم من قبل الامام (ع) وبقيّة المسلمين ومشاركة الملائكة في الحرب النفسية، تشتت جمع المشركين وانكسرت شوكتهم.

والقاعدّة ان الرعب حالة نفسية مشروطة تترك آثارها على الانسان الخائف او المرعوب على مستويين:
الاول: ان الرعب او الخوف الشديد يغيّر الدوافع الثانوية الباطنية عند الانسان، فيتغيّر عندها سلوكه على المدى البعيد. فعندما يكون الخوف دافعاً من دوافع السلوك، فان الخائف يكون اقرب الى سماع صوت الحق من الانسان الذي لا يعرف الا التحدي والطغيان والغطرسة.

الثاني: ان الخوف المشروط بشروط الظرف الخارجي، يغيّر سلوك الانسان الخائف وطبيعته عندما يكون الشرط قائماً. فاذا كان خوف المشركين هو احد آثار بطولة علي (ع) الخارقة، فان رعبهم لا يزول الا بزوال ذلك الظرف الخارجي. ووجود هذا الشرط الخارجي _ أي بطولة علي (ع) _ على ساحة الحرب يدفع

(²⁰) سورة آل عمران: آية 151.

بالمقاتل المرعوب الى الهرب من ساحة المعركة. فان الرعب الذي اصاب المشركين من سيف علي (ع) وهو الذي دخل المعركة الكبرى لاول مرة، كان رعباً حقيقياً دفعهم تحت قساوة الظرف الخارجي، الى الهزيمة والفرار من ساحة المعركة. وهي اول معركة رئيسية ضد الدين الجديد.

ذلك ان الرعب في المعركة يجعل المرعوب يعيش حالة نفسية واحدة وهي الضعف التام والعقم والعجز عن انجاز أي مكسب. وعندها يكون الفرار من القتال، الاسلوب الامثل بالخروج من ذلك المأزق الذي وُضع فيه. وكان ذلك في بدر يعني انتصاراً للدين الجديد ضد قوى الشرك المتمرس في القتال والنهب والسلب وتسفيه عقيدة المستضعفين.

وإذا ساور الرعب الانسان مرةً، فانه يبقى معه يتجدد كلما تجددت الظروف الخارجية التي أنشأته. بمعنى ان الذي خاف سيف علي (ع) وبطولته الخارقة في معركة بدر، فانه سيخافه في كل معركة لاحقة يلتحم فيها الطرفان. والرعب الذي اصاب المشركين المقاتلين في بدر، ترك آثاره على معركة أحد أيضاً. فما ان بدأت الحرب ورأى المشركون سيف ذي الفقار يلمع ساطعاً تحت وهج شمس المعركة حتى انكسرت حفون سيوفهم وأداروا مسار خيولهم، وفرّوا مسرعين يولون الدبر. ولكن ما حصل في أحد في المرحلة الثانية من المعركة من خسائر، كان بسبب عصيان الرماة لاوامر رسول الله (ص) كما سنرى في الفصل القادم بإذنه تعالى.

والذي حصل في الخندق لاحقاً، عندما برز علي (ع) لعمر بن عبد ود وصرعه على مرأى من الجيشين يحكي نفس القصة، فانهزم عندها ابو سفيان وجنوده تحت جنح الليل بزعم انهم لا يستطيعون مقاتلة السماء التي تمثلت بـ: سيف علي (ع)، والريح العاتية، ودعاء رسول الله (ص).

وبالاجمال، فان قتل ذلك العدد من المشركين في معركة بدر من قبل بطل واحد ترك رواسب الخوف والرعب في قلوب المشركين: (... سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان)²¹، وجعل المعركة بالنسبة لهم قضية لا يمكن ادارتها لصالحهم. فكان هروب المشركين وتوليهم عن الزحف وهزيمتهم القاسية، اهم آثار بطولة الامام (ع).

(²¹ سورة الانفال: آية 12).

د- دور الملائكة في المعركة:

كان للملائكة دور كبير في معركة بدر، ذلك انهما كانت الامداد الالهية للمسلمين المستضعفين قليلي العدد والعدد. فمع انهم لم يقتلوا احداً من المشركين، الا ان اختلاطهم بالمسلمين طمأن قلوب المقاتلين المؤمنين وبثّ رعباً اضافياً في قلوب المشركين.

مقدمة حول طبيعة الملائكة:

وصف لنا القرآن الكريم الملائكة بأنها كائنات كريمة أكرمها الله عزّ وجلّ، وجعلها واسطة بينه تعالى وبين العالم المشهود. ومن صفاتها المذكورة في القرآن المجيد ما يلي:

أ- الطاعة التامة لمولاهم الحق فيما يأمرهم، فليست لهم ذاتية مستقلة في الارادة، ولا يستقلون بعمل ولا يغيرون امراً امرهم الله تعالى، كما ورد في قوله تعالى: (... لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)²²، (لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِه يِعْمَلُونَ)²³.

ب- انهم غالبون دائماً وغير مغلوبين لانهم يعملون بأمر الله وارانته: كما اشار الى ذلك: (... والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون)²⁴، (... إن الله بالغ أمره...) ²⁵، (... وما كان الله ليُعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض...) ²⁶.

ج- ان لهم مراتب ومقامات مختلفة من العلوّ والامرية. والى ذلك اشار الذكر الحكيم على لسانهم: (وما منا إلا له مقام معلوم)²⁷، (... قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق...) ²⁸، (مُطَاعِ ثُمَّ آمِينَ)²⁹.

وتلك الصفات الفاضلة في الملائكة تجعلهم من اعظم المناصرين لدين الله. لان ارادتهم مرتبطة بشكل تام بارادة الله عزّ وجلّ.

(²²) سورة التحريم: آية 6.

(²³) سورة الانبياء: آية 27.

(²⁴) سورة يوسف: آية 21.

(²⁵) سورة الطلاق: آية 3.

(²⁶) سورة فاطر: آية 44.

(²⁷) سورة الصفات: آية 164.

(²⁸) سورة سبأ: آية 23.

(²⁹) سورة التكويز: آية 21.

ملائكة بدر في القرآن الكريم:

1- كان للملائكة دورٌ كبير في نصر المؤمنين في معركة بدر كما يصورها قوله تعالى: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)³⁰. فقد بين الله تعالى ما فعله بالمؤمنين من النصر يوم بدر بتقوية قلوبهم، وبما أمدهم به من الملائكة وبإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم. في حين كان المسلمون قليلي العدد ضعفاء عن المقاومة.

وفي تلك الآيات اخبارٌ بأن النبي (ص) قال لقومه يوم أحد مذكراً لهم بما حصل يوم بدر: أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ يَوْمَ بَدْرِ أَنْ جَعَلَ رَبُّكُمْ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَدَدًا لَكُمْ. وكانت مهمّة الملائكة تكثير سواد المسلمين حينما اختلطوا بهم، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين. فيكون عدد الملائكة جميعاً يوم بدر: خمسة آلاف وكان ذلك تابعاً للمصلحة. فقد كان ضَعْفُ المسلمين يوم بدر يقتضي امدادهم بذلك العدد من الملائكة المسوّمين³¹.

وبذلك تحقق النصر على الكافرين: (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) الآية، أي وما المعونة الا من عند الله القادر على الانتقام من الكفار. وتعبير آخر «فان الحاجة الى الله تعالى لازمة في المعونة وان امدكم بالملائكة فلا استغناء لكم عن معونته طرفه عين في تقوية قلوبكم وخذلان عدوكم بضعف قلوبهم»³².

لقد كان حال المؤمنين يوم بدر: «أذلة» كما عبّر القرآن الكريم، قبال ما كان عليه المشركون من القوة والشوكة. ولا ضير في التعبير، فقد اضاف الله سبحانه الذلة النسبية الى العزة، الى قوم مدحهم كل المدح حيث قال: (... فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ...) ³³.

ولم يقتصر نزول الملائكة كجنود يوم بدر، بل ان القرآن الكريم يصرح بنزول الملائكة يوم الاحزاب ويوم حنين. فقال في قصة الاحزاب: (... إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا...) ³⁴. وقال في يوم حنين: (... وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ... وَأَنْزَلْ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا...) ³⁵.

³⁰ (سورة آل عمران: آية 123 - 126).

³¹ (المسوّمين: المعلمين).

³² («مجمع البيان» - الطبرسي ج 2 ص 829).

³³ (سورة المائدة: آية 54).

³⁴ (سورة الاحزاب: آية 9).

³⁵ (سورة التوبة: آية 25 - 26).

واما نزول ثلاثة آلاف يوم بدر فلا ينافي قوله تعالى في سورة الانفال: (...فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)³⁶. لمكان قوله: مردفين، أي متبعين لآخرين وهم الألفان الباقيان المكملان للعدد على ما ذكر في هذه الآيات.

وحقيقة الامر ان الملائكة الذي مدّهم الله اليكم ليس لهم من امر النصر شيء بل هم أسباب ظاهرية يجلبون لكم البشرى وطمأنينة القلب، وانما حقيقة النصر من الله سبحانه لا يغني عنه شيء، وهو الله الذي ينتهي اليه كل امر، العزيز الذي لا يُغلب كما قال: (وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم)³⁷.

فكان الهدف من الملائكة اذن، طمأننة القلب، وتضعيف قوة العدو بالقتل والاسر من قبل المقاتلين المسلمين انفسهم: (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا خَائِبِينَ)³⁸. وقطع الطرف كناية عن تدمير عدتهم وتضعيف عددهم بالقتل والاسر، كما وقع يوم بدر.

2- الآيات التالية أشارت الى قصة بدر بشكل مباشر. قال تعالى: (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ. لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُطِيلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ . إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ... إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَلِكَ بَأْتُهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . ذَلِكَ فَذَوْقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ)³⁹.

وفي تلك الآيات الشريقات دلالات منها:

أ - ان الله عزّ وجلّ وعدهم بأن تكون إحدى الطائفتين لهم يستعملون عليها بنصر الله. والطائفتان هما: العير والنفير. فكانت العير قافلة قريش وفيها تجارهم وأموالهم وكان عليها اربعون رجلاً منهم ابو سفيان بن حرب. وكان النفير جيش قريش وهم زهاء الف رجل.

³⁶ سورة الانفال: آية 9.

³⁷ سورة آل عمران: آية 126.

³⁸ سورة آل عمران: آية 127.

³⁹ سورة الانفال: آية 7 - 14.

ب - كانت الغالبية من المسلمين تودّ أن تكون لها غير ذات الشوكة، وهي العير قافلة ابي سفيان حيث كانت أقلّ عدة وعدداً من النفيير. فندب النبي (ص) اصحابه للخروج، ولم يظنوا ان رسول الله (ص) سيلقى كيداً ولا حرباً فخرجوا لا يريدون الا ابا سفيان والركب ولا يرونها الا غنيمة لهم. ولكن الله سبحانه كان يريد خلاف ذلك، وهو ان يلاقوا النفيير فينتصروا عليهم ويستأصلوا الكافرين ويقطعوا دابرهم.

ج - طلب رسول الله (ص) النصر من الله عزّ وجلّ. فعندما رأى كثرة عدد المشركين وقلة المسلمين استقبل القبلة، وقال: «اللهم انجز لي ما وعدتني. اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الارض». فما زال يهتف ويدعو ربه ماداً يده حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأُنزل تعالى: (إِذ تَسْتَغِيثُونَ رَبُّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ) الآية. وهذا الامداد الملائكي المتتابع يتلائم مع آية 123 في آل عمران: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ...)⁴⁰. فتطابق تلك الآيات من السورتين يوضح ان المراد بنزول الف من الملائكة مردفين نزول الف منهم يستتبعون آخرين، فينطبق الالف المردفون على الثلاثة آلاف المنزلين.

د - ان الغاية من نزول الآية هو لغرض البشرى وطمأنة نفوس المسلمين وإلقاء الرعب في قلوب المشركين، لا من اجل قتل المشركين كما يشير اليه قوله تعالى: (إِذ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ...)⁴¹. فالملائكة لم ينزلوا ليقتلوا المشركين ولا قتلوا منهم احداً. فقد قتل علي (ع) النصف ممن قُتل، وقتل النصف الآخر سائر المسلمين. وانما كانت مهمة الملائكة تكثير سواد المسلمين حينما اختلطوا بالقوم، وتثبيت قلوب المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين.

هـ - ان حقيقة النصر منحصرة بالله سبحانه وتعالى، وليس بكثرة العدد والقوة. والكثرة والقوة المادية اسباب ظاهرية، بينما تكمن الاسباب الحقيقية بيد الله تعالى.

2- الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للمعركة:

وكانت الظروف القانونية والشرعية في العام الثاني للهجرة النبوية تسمح بصراع مسلح بين قوى الشرك وقوى الايمان. فالمسلمون كانوا مسلحين بالاذن الالهي لقتال المشركين، من اجل إنشاء اجواء

⁴⁰ (سورة آل عمران: آية 123).

⁴¹ (سورة الانفال: آية 12).

اجتماعية عالمية لطاعة الخالق عزّ وجلّ واقامة العدالة الحقوقية والاجتماعية بين الناس. وكان المشركون مقتنعين بان المسلمين لا يزالون أكلة رأس، يأكلها ابو جهل مع عبيدة.

أ - معركة بدر والظرف القانوني:

كانت معارك رسول الله (ص) تعبّر عن عمق الصراع بين الشرك والاسلام، وعمق الهوة بين النظام الاسلامي الجديد والكيان السياسي للمشركين في الجزيرة العربية. ولا شك ان الصراع بين الاسلام والشرك لم يكن محصوراً بالجانب العسكري، بل كان صراعاً في الجانب الاقتصادي والاجتماعي والاعلامي والقانوني «العرفي» على اقل التقادير.

والحرب لا تقع ما لم تكن هناك ظروف تأريخية تستدعي وقوعها على مستويين: اجتماعي وديني. فعلى المستوى الاجتماعي، فان رسول الله (ص) انما خاض معركة بدر، لان الظروف التي مرّ بها المسلمون كانت تقتضي قيام حرب من ذاك القبيل. ومن تلك الظروف: بقاء المشركين على شركهم، وانتهاك مجتمع المسلمين في المدينة من قبل قريش كالتلميح او التصريح بالهجوم، وعدم استجابتهم لعرض النبي (ص) بعدم القتال عبر قوله تعالى: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا...)⁴²، واستفحال الروح العدوانية للمشركين، والظلم الصارخ الذي اصاب المسلمين في مكة. كل تلك العوامل كانت تبرر القيام بحرب.

اما على المستوى الرسالي الديني، فان المسلمين مكلفون بقتال المشركين حتى يؤمنوا بالله عزّ وجلّ. وقد قال تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يُرَدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا...)⁴³.

وهذه الآية نزلت قبل بدر بشهرين بخصوص سرية عبد الله بن جحش حيث استاقت تلك السرية عبر قريش وفيها تجارة من الطائف وقتلوا عمرو بن عبد الله الحضرمي. وكان ذلك في غرة رجب وهم يظنونهم من جمادى. فرعمت قريش ان محمداً (ص) استحل الشهر الحرام. فأجابتهم الآية الكريمة على ذلك⁴⁴.

وفي مجمل الامر بالقتال افصحت سورة براءة التي نزلت في السنة التاسعة للهجرة بذلك، فقالت: (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ

⁴² (سورة الانفال: آية 61.)

⁴³ (سورة البقرة: آية 217.)

⁴⁴ (راجع الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب، تجد فيه بحثاً مفصلاً عن القتال في القرآن الكريم.)

وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ⁴⁵ ، (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير)⁴⁶ ، (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)⁴⁷ ، (... وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة...) ⁴⁸.

ولذلك كانت معركة بدر والمعارك الأخرى الكبرى في الإسلام تحمل ظروفًا قانونية وشرعية تسمح للصراع المسلح بين قوى الشرك وقوى الإيمان. لأنها كانت كفاحاً من أجل البقاء، وبوجه أخص كانت كفاحاً من أجل بقاء الإيمان على وجه الأرض.

وفي رواية ان قريشاً لما نظرت الى قلة اصحاب رسول الله (ص) قال ابو جهل: ما هم إلا أكلة رأس، لو بعثنا اليهم عبيدنا لاحذوهم احذاً باليد. فقال عتبة بن ربيعة: أترى لهم كميناً او مدداً؟ فبعثوا عمير بن وهب الجمحي وكان فارساً شجاعاً فجال بفرسه حتى طاف على عسكر رسول الله (ص) ثم رجع فقال: ليس لهم كمين ولا مدد. ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت الناقع، اما ترونهم خرساً لا يتكلمون ويتلمظون تلمظ الافاعي ما لهم ملجأ الا سيوفهم. وما اراهم يولون حتى يقتلوا، ولا يُقتلون حتى يقتلوا بعددهم فارتأوا رأيكم. وكان وجود الشرك بقواه العاتية منذراً بمنع الأمة المصعرة في ذلك الوقت من الاستسلام والخنوع للحياة المادية. واستمرار الحرب بمنعها من الغط في سبات عميق او النوم على فراش ناعم وثير الى امد غير محدود. فللأمة لاحق في العيش متوتبة تدافع عن نفسها من ظلم الطغاة والمشركين.

ولذلك فان معركة بدر الكبرى كانت قد حددت هوية المسلمين وكشفت عن إيمانهم وصلابتهم. وحددت هوية المشركين أيضاً، وكشفت عن خوائهم وضعفهم. وكشفت معركة بدر ايضاً دور الفتى (ع) وشخصيته الفريدة في الازمات. فقتله ذلك العدد الكبير من نخبة المشركين شد الجماعة المقاتلة بحزام الفخر والتحدي والقوة، ولا عجب ان يفتخر رسول الله (ص) بوزيره الشاب (ع) وهو يقتحم الميدان ويحاول افناء العدو عن بكرة ابيه.

ان الحرب في الإسلام كانت ولا تزال من وسائل استقرار العالم دينياً وفكرياً وسياسياً. فالتسامح والاحلاق السامية التي ابدتها تعاليم الإسلام في الحروب من عدم التعرض للنساء والصبيان، وعدم التعرض

⁴⁵ (سورة التوبة: آية 14 - 15).

⁴⁶ (سورة التوبة: آية 73).

⁴⁷ (سورة التوبة: آية 111).

⁴⁸ (سورة التوبة: آية 36).

للجرحي، وحرمة المثلة ولو بالكلب العقور، وحرمة العبث بالكائنات الطبيعية كقطع الاشجار وقتل الحيوانات، كلها تدل على ان الدين السماوي يطمح في انشاء ظروف اجتماعية ملائمة لطاعة الخالق عزّ وجلّ واقامة العدل واحقاق الحقوق. فالحرب الدينية التي كان يخوضها علي (ع) لم يكن شغلها سفك الدماء اصلاً، بل كان شغلها تثبيت اسس الامن والسلام الديني في العالم.

ولما كان التعايش بين الشرك والايان مستحيلاً من الناحيتين النظرية والعملية، كانت الحرب بقيادة رسول الله (ص) الحل القانوني الوحيد لتثبيت الاسلام في العالم ذلك الزمان. ومجرد استحضار الموعدة ولادعوة للقيم والتوحيد على لسان رسول الله (ص) لا تكفي المشركين. فكان لا بد من استخدام لغة القوة والسيف التي يفهمونها. فالحرب اذن لا بد ان تقع، اخلاقياً وقانونياً وعقلياً. لان المشرك يحمل دوماً روحاً ضد السماء في كل ظرف وحال. فكان لا بد من استئصال شأفته من عالم يعيش فيه التوحيد والايان.

ب - معركة بدر واقتصاد مكة:

كانت معركة بدر امتحاناً عسيراً لاقتصاد المشركين في مكة. فذلك الاقتصاد الرأسمالي وتلك التجارة الرائجة بين الشام واليمن والعراق تحتاج الى سلام دائم واطمئنان على سلامة الاموال والبضائع المنتقلة عبر القوافل المتعددة التي تدخل مكة وتخرج منها. ومع ان ابا سفيان رجح بقافلته التجارية سالماً، الا ان معركة بدر الكبرى كانت قد زعزعت قريش اقتصادياً، لانها _ بالاضافة الى الخسائر المادية والبشرية التي لحقت بالمشركين _ اربكت حركة الاموال والاستثمارات والعمالة في مجتمع مكة. ولكن ثراء قريش ورخاءها المالي وطبيعتها الجغرافية امتص تلك الحالة المضطربة التي خلفتها معركة بدر الكبرى. ويؤيده اهم عندما خرجوا الى بدر، ما بقي احد من عظماء قريش الا اخرج مالا لتجهيز الجيش.

لقد كان التخطيط السماوي لمعركة بدر هو تدمير قريش اقتصادياً وانزال الهزيمة العسكرية بها واذلالها عبر مواجهة النفير وترك العير. فهزيمة النفير تجلب اموالاً أكبر من مجرد الاستيلاء على العير دون قتال. وكان تخطي قريش منصباً على القضاء على الاسلام قضاء تاماً، ولذلك كان ابو جهل مصراً على القتال باعتقاد انها معركة حاسمة واحدة وينتهي عندها الاسلام. فحتى لو ارتبك اقتصاد قريش، فان ذلك سيكون مؤقتاً ومرهوناً بتدمير الاسلام واجتثاثه من جذوره.

ان رسول الله (ص) بمعاركه العظيمة مع مشركي قريش استنزف عاصمة الاوثان آنذاك وحطم تجارها. ولذلك، كان دور علي (ع) في تلك المعارك عظيماً في تسديد سياسة رسول الله (ص) وخططه في تدمير اقتصاد المشركين. لاننا لو تصورنا وجود المسلمين ضعفاء في المدينة، ووجود دولة مشركة قوية في مكة،

وليس بينهما مواجهة عسكرية، لكان ذلك يحصر الاسلام _ على احسن التقادير _ في منطقة ضيقة محدودة ويمنع انتشاره في العالم.

ولذلك كانت استراتيجية رسول الله (ص) مهاجمة المشركين اينما كانوا، في الظروف المناسبة التي تخدم اهداف الرسالة. فكان الامام (ع) حربة رسول الله (ص) التي يصول بها ويجول ضد المشركين. وقد اثبتت تلك الاستراتيجية صحتها في فتح الطريق لتضعيف العدو ونشر الاسلام على وجه الارض. ومع ان معركة بدر آثاراً اقتصادية على الطرفين الا ان المعركة كانت، أساساً، دينية. فالدين هو اساس الصراع بين الطائفتين: المؤمنة بالدين الجديد، والتمسكة بالاوثان. بينما كان المال والاقتصاد اثرًا من آثار تلك الحروب ومقتضىً من مقتضياتها.

ج _ معركة بدر: امتحان المسلمين

تعدّ الحرب جحيماً بالنسبة للمقاتلين في كل وقت، منذ بداية التأريخ ولحد اليوم. فهي صراع مسلح بين مجموعتين ذو تنظيم سياسي وعقائدي. فالجرب تقع نتيجة قرار سياسي مُتخذ من قبل قادة القوم _ الكبار في السن اغلب _ لزج الشباب جنوداً في الحرب ووقوداً لها.

ولكن معارك الاسلام، وبضمنها بدر الكبرى، لم تكن كذلك. فقد قاتل رسول الله (ص) في بدر وهو في اواسط العقد الخامس من عمره الشريف جنباً الى جنب مع علي (ع) وهو في العقد الثاني، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وهو في السبعين من عمره. وهكذا كان بقية المسلمين المقاتلين بين شيخ كبير طاعن في السن وشاب يافع. قاتلوا جميعاً في حرب دينية إلزامية بعد أن أُذن لهم بقتال المشركين الظالمين.

لقد كانت معركة بدر امتحاناً حقيقياً لاختبار إيمان المسلمين بالاسلام وبالقدرة الغيبية على صنع النصر. فقد كانت اول حرب بين الاسلام والشرك، وكانت اول اختبار لقوة المسلمين في الصمود امام المشركين المتمرسين على الحرب والسلب. ولم يكن معروفاً بعد طموحات المشاركين في المعركة نحو الغنائم والمكاسب الحربية، او قدراتهم على الصمود ومواجهة العدو، او الفرار من المعركة. ولكن المعركة افرزت حقيقة مهمة جداً، وهي ان المعارك القادمة ستكون اكثر شراسة وضراوة وأشدّ بأساً لان البطل الذي قتل النصف ممن قُتل من المشركين في بدر سيكون شاخصاً تحت امرة رسول الله (ص) يدافع عن دينه مضحياً بكل غالٍ ونفيس في ساحات القتال.

الفصل الثاني عشر

معركة أُحد

- علي (ع)، ومعركة أُحد * صور من معركة أُحد * الدلالات العلمية للنصوص: 1- معركة أُحد: الخصائص.
- 2- معركة أُحد: الآثار * علل الحرب وبدائلها: 1- هل يمكن النظر لكل الحروب من زاوية واحدة؟ 2- ما هو البديل الاخلاقي للحرب؟

علي (ع) ومعركة أحد

«أحد» اسم جبل يبعد عن المدينة ثلاثة أميال تقريباً. وكانت غزوة أحد في شوال يوم السبت لسبع ليالٍ خلون منه في سنة ثلاث من الهجرة⁴⁹. تألق علي (ع) في تلك المعركة وكان له دور حاسم، فقد قاتل قتال الأبطال، وحمى الدين الجديد بحيث ان رسول الله (ص) خاطبه (ع) كما رواه القندوزي: «يا ابا الحسن، لو وضع إيمان الخلائق واعمالهم في كفة ميزان ووضع عملك يوم أحد في كفة أخرى لرجح عملك على جميع ما عمل الخلائق، وان الله باهى بك يوم أحد ملائكته المقربين ورفع الحجب من السماوات السبع واشرفت إليك الجنة وما فيها وابتهج بفعلك رب العالمين، وان الله تعالى يعوضك ذلك اليوم ما يغبط كل نبي ورسولٍ وصديق وشهيد»⁵⁰.

و«قاتل رسول الله (ص) يوم احد قتالاً شديداً، فرمى بالنبل حتى فنى نبله وانكسرت قوسه وانقطع وتره. ولما جرح رسول الله (ص) جعل علي (ع) ينقل له الماء في درقته من المهراس⁵¹ ويغسله، فلم ينقطع الدم. فأنت فاطمة وجعلت تعانقه وتبكي، واحرقت حصيراً وجعلت على الجرح من رماده فانقطع الدم»⁵². و«كسرت يد علي (رضي الله عنه) يوم أحد، فسقط اللواء من يده. فقال رسول الله (ص) ضعوه في يده اليسرى، فانه صاحب لوائي في الدنيا والآخرة»⁵³. واصابت علياً (ع) ذلك اليوم ست عشرة ضربة سقط الى الارض في اربع منهن⁵⁴.

وقد ورد عن الامام الباقر (ع): أصاب علي (ع) يوم أحد ستون جراحاً، فأمر النبي (ص) بعد انتهاء المعركة بعض النساء بمداواة جراحه. فقلن: يا رسول الله لا نعالج منه جرحاً الا انفتق منه جرح آخر. فدخل عليه رسول الله (ص) وجعل يمسح الجراح بيده، ويقول: ان رجلاً لقي هذا في الله فقد ابلى واعذر. فكان القرع الذي يمسح به النبي (ص) يلتئم لساعته. فقال علي (ع): الحمد لله، اذ لم افرّ ولم اولّ الدبر. وكان (ع) هو المقصود من قوله تعالى: (... وسيجزي الله الشاكرين)⁵⁵. وتلك آية شريفة يقول صدرها: (وما مُحَمَّدٌ إِلَّا

⁴⁹ «تاريخ الطبري» ج 2 ص 499.

⁵⁰ «ينابيع المودة» - القندوزي باسناده عن علي بن الحسين. الباب الثالث عشر ص 64.

⁵¹ المهراس: ماء بجبل أحد.

⁵² «الكامل في التاريخ» ج 2 ص 157.

⁵³ «وسيلة المال» - الحضرمي ص 225. و«اسنى المطالب» - الوصافي. الباب الحادي عشر ص 69.

⁵⁴ «مفتاح النجاة» - البدخشاني باسناده عن قيس بن سعد عن ابيه ص 41.

⁵⁵ سورة آل عمران: آية 144.

رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ
اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ⁵⁶.

قصة المعركة:

والقصة في أحد هي ان قريشاً عندما اصيبت في بدر بتلك الهزيمة القاسية، رجعت فلولها المكسورة الى مكة، ورجع ابو سفيان بن حرب بقافلته التجارية وتنادوا ان رسول الله (ص) قد وترهم وقتل خيارهم، فما لهم الا الاستعانة بمال قريش المحمول على ابل ابي سفيان لتمويل الحرب القادمة. فـ «اجتمعت قريش لحرب رسول الله (ص)»⁵⁷، وكان فيها ابو سفيان بن حرب واصحاب العير بأحاييشها⁵⁸ ومن اطاعها من قبائل كنانة واهل تامة. وكل اولئك قد استعروا على حرب رسول الله (ص). وبكلمة، فقد «خرجت قريش بجدها وجدّها واحاييشها ومن معها من بني كنانة واهل تامة وخرجوا معهم بالظعن⁵⁹ التماس الحفيظة ولتلا يفروا»⁶⁰.

وخرج ابو سفيان بن حرب وهو قائد المشركين ومعه هند بنت عتبة و غلام حبشي يقال له وحشي يقذف بحربة. وهي الحربة التي قتل فيها حمزة. فاقبلوا مع جيش المشركين بثلاثة آلاف رجل ومائتي فرس والظعن خمس عشرة امرأة، ونزلوا بمنطقة على شفير الوادي مما يلي المدينة. وخرج رسول الله (ص) الى أحد بألف رجل، ولكن المنافقين الذين خرجوا معه (ص) رجعوا الى المدينة في ثلاثمائة وعلى رأسهم عبد الله بن ابي سلول حيث كان لسان حالهم يقول: علام نقتل انفسنا. ارجعوا ايها الناس الى المدينة. فبقي مع رسول الله (ص) سبعمائة رجل. وكان في المشركين سبعمائة دارع، وكان في المسلمين مائة دارع ولم يكن معهم الخيل الا فرسان، فرس لرسول الله (ص) وفرس لابي بردة بن نيار الحارثي.

رسم النبي (ص) خطة المعركة والقتال واجلس (ص) خمسين رامياً على جبل خلف عسكر المسلمين وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم: لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا ظهرنا عليهم، وإن رأيتموهم ظهوروا

⁵⁶ (سورة آل عمران: آية 144).

⁵⁷ («سيرة ابن هشام» ج 3 ص 64).

⁵⁸ الاحاييش: من اجتمع الى العرب وانضم اليهم من غيرهم.

⁵⁹ (الظعن: جمع الظعينة وهي المرأة الراكبة في الهودج. وكانت الابل تحمل الهودج. قال عمرو ابن كلثوم:

ففي قبل التفرق يا ظعينا
نُخَيْرُكَ اليقين ونُخَيْرِنَا

«الصحاح» للجوهري ج 4 ص 216.

⁶⁰ («تاريخ الطبري» ج 2 ص 501).

علينا فلا تعينونا. أي احموا ظهورنا ولا تفارقوا مكانكم. إن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشاركونا.

وكان لواء المشركين مع طلحة بن ابي طلحة الملقب بكبش الكتيبة وهو من بني عبد الدار، فأعطى النبي (ص) اللواء لمصعب بن عمر _ وهو من بني عبد الدار ايضاً _ لان ذلك كان عندهم من الاعراف الاجتماعية. ولما قتل مصعب دفعه النبي (ص) الى علي (ع).

و«قام طلحة صاحب لواء المشركين فقال: يا معشر اصحاب محمد، انكم تزعمون ان الله يجعلنا بسيوفكم الى النار، ويعجلكم بسيوفنا الى الجنة. فهل منكم احد يعجله الله بسيفي الى الجنة، او يعجلني بسيفه الى النار؟ فقام اليه علي بن ابي طالب (ع)، فقال: والذي نفسي بيده، لا افارقك حتى اعجلك بسيفي الى النار، او تعجلني بسيفك الى الجنة. فضربه علي (ع) فقطع رجله فسقط فانكشفت عورته، فقال: انشدك الله والرحم يا ابن عم، فتركه فكبر رسول الله (ص) وقال لعلي (ع): ما منعك ان تجهز عليه؟ قال: ان ابن عمي ناشدني حين انكشفت عورته، فاستحييت منه»⁶¹. ولكن طلحة لم يلبث بعد الضربة الا قليلاً.

و«لما قتل علي بن ابي طالب اصحاب الالوية ابصر رسول الله (ص) جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: احمل عليهم فحمل عليهم ففرق جمعهم وقتل عمرو بن عبد الله الجمحي، قال: ثم ابصر رسول الله (ص) جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: احمل عليهم فحمل عليهم ففرق جمعهم وقتل شيبه بن مالك... فقال جبرئيل: يا رسول الله، ان هذه هي المواساة. فقال رسول الله (ص): انه مني وانا منه. فقال جبرئيل: وأنا منكما. قال: فسمعوا صوتاً: لا سيف الا ذو الفقار، ولا فتى الا علي»⁶².

وفي كتاب «الارشاد» للشيخ المفيد (ت 413 هـ) ان اصحاب اللواء كانوا تسعة قتلهم علي بن ابي طالب (ع) عن آخرهم، وانهم القوم، وكان على رأس المنهزمين: ابو سفيان، وعمرو بن العاص، وهند. قال الواقدي: «ما ظفر الله نبيه في موطن قط ما ظفره وأصحابه يوم أحد».

ولما رأى الرماة انهزام المشركين قالوا: الغنيمة الغنيمة. فقال عبد الله بن جبير: مهلاً، أما علمتم ما عهد اليكم رسول الله (ص)؟ فأبوا وتركوا مواقعهم الى الغنائم. ولم يبق مع ابن جبير الا عشرة رجال. ولما رأى خالد بن الوليد ان ظهر المسلمين قد خلا كراً في مئتي فارس على من بقي مع ابن جبير فأبادهم. وقُتل ابن جبير بعد ان قاتل قتال البطل المستميت. وتجمّع المشركون من جديد وأحاطوا بالمسلمين الذي كانوا مشغولون بالغنائم، واطبقوا عليهم من الامام والخلف وواقعوهم بين شقي الرحى.

(⁶¹) «تاريخ الطبري» ج 2 ص 501 - 514.

(⁶²) م. ن. - ج 2 ص 501 - 514.

وَقُتِلَ حَمْزَةُ عَمِّ النَّبِيِّ (ص) ⁶³ قَتْلَهُ وَحَشَى الْحَبَشِيِّ.

وَفَرَّ الْمُسْلِمُونَ عَنِ النَّبِيِّ (ص) وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ، مِنْهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (ع)، وَأَبُو دَجَانَةَ، وَسَهْلُ بْنُ حَنِيفٍ، وَقَدْ اسْتَمَاتُوا فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ (ص). ذَكَرَ الطَّبْرِيُّ فِي تَأْرِيخِهِ أَنَّ عَمْرَ وَعَثْمَانَ كَانَا مِنَ الَّذِينَ انْهَزَمُوا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ (ص).

وَجَرَحَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) فَكُسِرَ أَنْفُهُ وَرَبَاعِيَتُهُ السُّفْلَى، وَشُقَّتْ شَفْتُهُ، وَأَصَابَتْهُ ضَرْبَةٌ فِي جَبْهَتِهِ الشَّرِيفَةِ. فَسَالَ الدَّمَ عَلَى وَجْهِهِ، وَأُغْمِيَ عَلَيْهِ. وَلَمَّا فَتَحَ عَيْنَيْهِ نَظَرَ إِلَى عَلِيٍّ (ع)، وَكَانَ إِلَى جَانِبِهِ لَا يَفَارِقُهُ، فَقَالَ (ص): يَا عَلِيُّ مَا فَعَلَ النَّاسُ؟ قَالَ (ع): نَقَضُوا الْعَهْدَ وَوَلَوْا الدَّبْرَ. فَقَالَ (ص) لَهُ: أَكْفَيْتَنِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَصَدُوا قَصْدِي، فَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ فَكَشَفْتَهُمْ، فَعَادُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ص) مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، فَقَالَ (ص) لَهُ: أَكْفَيْتَهُمْ. فَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ وَكَشَفْتَهُمْ عَنْهُ.

وَهَكَذَا دَفَعَ عَلِيُّ (ع) عَنِ رَسُولِ اللَّهِ (ص) كُلَّ مَكْرُوهِهِ. وَلَمَّا يَثَسُّ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قَتْلِ النَّبِيِّ (ص) فَتَرَتْ هَمَّتَهُمْ وَعَادُوا الْقَهْقَرَى بَعْدَ أَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبْعُونَ مَقَاتِلًا، وَقُتِلَ مِنْهُمْ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ رَجُلًا ⁶⁴. ذَكَرَ ابْنُ حَزْمٍ الْإِنْدَلِسِيُّ (ت 456 هـ) اثْنَيْنِ فَقَطْ قَتَلَهُمَا عَلِيُّ (ع) هُمَا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَمِيدٍ مِنْ بَنِي إِسْدٍ، وَأَبُو الْحَكَمِ بْنِ الْإِحْسَنِ مِنْ بَنِي زَهْرَةَ ⁶⁵. وَلَكِنَّ الدَّلَائِلَ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ أَغْلَبَ الْقَتْلَى كَانُوا بِسَيْفِ عَلِيٍّ (ع) وَرَسُولِ اللَّهِ (ص) لِأَنَّهُمَا لَمْ يَنْشَغَلَا بِالْغَنَائِمِ.

إِدَانَةُ الْمُهْزَمِينَ:

وَنَزَلَ الْوَحْيُ فِيهَا يَخْصُ مَعْرَكَةَ أَحَدِ يَدَيْنِ فِيهِ الْمُهْزَمِينَ الَّذِينَ انْهَزَمُوا وَقَتَّ الشَّدَّةَ وَتَرَكَوْا رَسُولَ اللَّهِ (ص) وَعَلِيًّا (ع) مَعَ قَلَّةٍ قَلِيلَةٍ تَقَاتِلُ ثَلَاثَةَ آلَافِ فَارِسٍ مِنْ فَرَسَانَ الْعَدُوِّ. فَانْقَلَبُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ بَعْدَ أَنْ سَمِعُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ص) قَدْ قُتِلَ. يَقُولُ تَعَالَى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) ⁶⁶.

فَالْمَشْهُورُ تَأْرِيحِيًّا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَمَا سَمِعُوا قَاتِلًا يَقُولُ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، قُتِلَ مُحَمَّدٌ، فَرَّ أَكْثَرُهُمْ، وَشَكَّ بَعْضُهُمْ فِي دِينِهِ وَقَالَ: لَيْتَ لَنَا إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي زَعِيمِ الْمُنَافِقِينَ طَرِيقًا كَيْ يَأْخُذَ لَنَا الْإِمَانَ مِنْ أَبِي سَفْيَانَ، وَقَالَ

(⁶³) كَانَ حَمْزَةُ عَمِّ النَّبِيِّ (ص) وَأَخُوهُ فِي الرِّضَاعَةِ وَيَكْبِرُهُ أَرْبَعَ سِنِينَ. دَافَعَ حَمْزَةُ (رَضِيَ) عَنِ النَّبِيِّ (ص) يَوْمَ الْعَقَبَةِ، حَيْثُ وَقَفَ هُوَ وَآمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (ع) عَلَى الْعَقَبَةِ وَمَعَهُ السَّيْفُ مَخَاطِبًا الْمُشْرِكِينَ: «وَاللَّهِ لَا يَجُوزُ أَحَدٌ هَذِهِ الْعَقَبَةَ إِلَّا ضَرْبَتْهُ بِسَيْفِي». وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) وَمَنْ بَايَعَهُ مِنَ الْإِنصَارِ فِي دَارِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ فِي مَكَّةَ.

(⁶⁴) «جَوَامِعُ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ» - ابْنُ حَزْمٍ الْإِنْدَلِسِيُّ ص 138.

(⁶⁵) م. ن. - ص 138.

(⁶⁶) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: آيَةٌ 144.

الآخر: لو كان محمدٌ نبياً لما قُتل. فأداهم القرآن الكريم بالارتداد والانقلاب عن رسول الله (ص). وقد تبين ان اسلامهم لم يصل الى درجة اليقين حيث يفترض ان يضحي المقاتل بحياته رخيصة في سبيل الله. ولو كانوا على درجة من الايمان لاستماتوا في القتال حين شاع الخبر بقتل نبيهم (ص). ولكن علياً (ع) بقي في المعركة يحامي عن رسول الله (ص)، وكان يفدي نفسه دفاعاً عنه (ص).

وآية أخرى نزلت في معركة أحد تقول: (وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتِلٍ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)⁶⁷. وفي الآية موعظة مصطبغة بالعتاب للمسلمين الذين فروا من المعركة، وشوقهم تعالى للائتمام بالربانيين الذين حكى الله فعلهم من الصبر وعدم الضعف والوهن في الله تعالى. قال الرازي (ت 604 هـ) في تعرضه لهذه الآية: «اعلم من تمام تأديبه قال للمنهم يوم أحد: ان لكم بالانبياء المتقدمين وأتباعهم اسوة حسنة. فلما كانت طريقة اتباع الانبياء المتقدمين: الصبر على الجهاد وترك الفرار، فكيف يليق بكم الفرار والانهزام؟ [اما الحديث عن الذين ثبتوا ولم ينهزموا] فقد قال صاحب الكشاف: ما وهنوا عند قتل النبي، وما ضعفوا عن الجهاد بعده، وما استكانوا للعدو. وهذا تعريض بما اصابهم _ أي المهزومين _ من الوهن والانكسار عند الارجاف بقتل رسولهم، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم للكفار، حتى ارادوا ان يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن ابي، وطلب الامان من ابي سفيان»⁶⁸.

ثم قال الرازي: «ومعنى قوله تعالى: والله يحب الصابرين. ان من صبر على تحمل الشدائد في طريق الله، ولم يظهر الجزع والعجز والهلع فان الله يحبّه. ومحبة الله للعبد عبارة عن ارادة اكرامه واعزازه وتعظيمه، والحكم له بالثواب والجنة، وذلك نهاية المطلوب»⁶⁹. يقول ابن حزم الاندلسي (ت 456 هـ): «وانهزم قوم من المسلمين، فيبلغ بعضهم الى الجلبع دون الاعوص. منهم: عثمان بن عفان، وعثمان بن عبيد الانصاري، غفر الله عزّ وجلّ ذلك لهم، ونزل القرآن بالعفو عنهم بقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَمِيمِ الْجَمْعَانِ إِذْ مَا اسْتَرْزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ...)»⁷⁰ ⁷¹. وقد كان العفو مخصوصاً بتلك الواقعة. اما في غيرها، فعلمه عند الله سبحانه.

(67) سورة آل عمران: آية 146.

(68) «التفسير الكبير» للرازي. تفسير آية 146 من سورة آل عمران.

(69) «المصدر السابق».

(70) سورة آل عمران: آية 155.

(71) «جوامع السيرة النبوية» ص 129.

صور من معركة أحد:

تضمّنت معركة أحد صوراً رائعة من إيمان القلّة التي كانت لا تكتثر بالموت وترجو لقاء الله تعالى. ومع ان الجوّ العام كان قد تأثر بمعصية الرماة وانهمزام المسلمين الذين لم يرسخ الايمان في قلوبهم، الا ان الشواهد الشخصية الفريدة في تلك المعركة دلّت على عمق الايمان لدى البعض الآخر القليل العدد.

1- من مصاديق اليقين:

أ- قال النبي (ص) لابي دجانة يوم أحد وبعد هزيمة الناس: «انصرف فأنت في حلّ من بيعتي». فبكى ابو دجانة ورفع رأسه الى السماء وقال: لا والله الى اين انصرف؟ الى زوجة تموت او ولد يموت، او دار تحرب، او مال يفنى، أو اجل قد اقترب! فكان يقاتل هو من ناحية، وعلي (ع) من ناحية. ولما أثنى بالجراح سقط على الارض فاحتمله علي (ع) «...»⁷². وظاهر الرواية ان رسول الله (ص) اراد امتحان ايمانه، فوجده راسخاً. والا فان البيعة لا تنكث بانكسار او هزيمة عسكرية.

ب- لما رأى انس بن النضر المنهزمين صاح بهم قائلاً: ماذا تصنعون بالحياة بعد نبيكم؟ موتوا على ما مات عليه رسول الله (ص)، وان كان محمد قد قتل فان ربّ محمد لم يُقتل. ثم قاتل قتال الابطال حتى استشهد رحمه الله.

2- لما انصرف النبي (ص) من أحد الى المدينة استقبلته «حمنة» بنت عمته (ص). فقال النبي (ص) لها: احتسي، قالت: من يا رسول الله؟⁷³ قال (ص): أخاك عبد الله، فاسترجعت واستغفرت له، وهنأته بالشهادة. ثم قال لها: احتسي. قالت: من يا رسول الله؟ قال: حمزة بن عبد المطلب خالك. فاسترجعت، واستغفرت له، وهنأته بالشهادة. ثم قال (ص): احتسي. قالت: من يا رسول الله؟ قال (ص): زوجك مصعب بن عمير. فقالت: وا حزنه، وولولت، وصاحت. فقال رسول الله (ص): ان زوج المرأة منها بمكان ما هو لأحد.

3- عندما أقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر الى اخيها حمزة، قال النبي (ص) لابنها الزبير: ارجعها، حتى لا ترى ما بأخيها. فأعلمها الزبير بأمر رسول الله (ص)، فقالت: ولم، وقد بلغني انه مثل بأخي. وهذا قليل في الله. فما أرضانا بما كان، لاحتسين واصبرن.

4- تزوّج حنظلة بن ابي عامر في الليلة التي كانت في صبيحتها معركة أحد. فاستأذن رسول الله (ص) في ان يبقى مع اهله، فنزل قوله تعالى: (... إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا

(72) «بحار الانوار» للمجلسي ج 6 الطبعة الحجرية.

(73) أي من الذي قُتل؟

استأذونك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم...»⁷⁴ فأذن له النبي (ص)، وتخلّف حنظلة عند اهله. لكنه حين اصبح وسمع هاتف الحرب اسرع الى ساحة المعركة والجهاد وكان لا يزال جنباً فقاتل حتى استشهد. قال رسول الله (ص): رأيت الملائكة تغسل حنظلة بين السماء والارض بماء المزن في صحائف من ذهب.

5- لما استشهد حمزة (رض) جاءت هند ام معاوية بن ابي سفيان فاستخرجت كبده ولاكته فلم تستطع اكله فلفظته وقطعت اذنه وجعلتها قلادة في عنقها وقطعت يديه ورجليه ومذاكيره ولذلك تسمى هند: «آكلة الاكباد»⁷⁵. وكانت هند قد اعطت وحشياً الحبشي الذي قتل حمزة عهداً لان قتل محمداً (ص) او علياً (ع) أو حمزة (رض) لتعطيه رضاه. ولذلك اشارت زينب الكبرى في خطبتها: «وكيف يرتجى مراقبة من لفظ فوه اكباده الاذكياء ونبت لحمه من دمائه الشهداء». ودفن النبي (ص) حمزة بشيابه التي استشهد فيها وزاده برداً فقصر عن رجليه فدعا بأذخر حشيش من الارض وطرحه عليه وصلى عليه سبعين صلاة وكبر عليه سبعين تكبيرة، وما كان يوم أشدّ على رسول الله (ص) أشدّ من يوم أحد لما سمع (ص) النوح قال: «ولكن حمزة لا بواكي له» فبكته نسوة الانصار. وكانت فاطمة الزهراء (ع) تبكي حمزة وتزور قبره.

الدلالات العلمية للنصوص

كانت لمعركة أحد خصائص متميزة تستحق الدراسة والتأمل. كخروج نساء المشركين في المعركة، وعصيان بعض الرماة أوامر النبي (ص). وكانت للمعركة آثار قوية على مجرى المعارك اللاحقة في التأريخ الاسلامي.

1- معركة أحد: الخصائص

أ- ان التوازن التاريخي بين جيشي المسلمين والمشركين لم يكن متكافئاً. تماماً كما كان الوضع في معركة بدرالسابقة. فقد كان في المسلمين في أحد سبعمائة مقاتل منهم مائة دارع وفرسان، بينما كان جيش المسلمين مكوناً من ثلاثة آلاف مقاتل منهم سبعمائة دارع ومائتي فرس وثلاثة آلاف بعير. وكان البعير في ذلك الوقت اداة نقل المواد الثقيلة من الامتعة والاسلحة والافراد، بينما كان الفرس وسيلة الهجوم.

ب- ظاهرة جديدة في حروب المشركين مع المشركين وهي اخراج النساء معهم على الهوداج «الظعن» التماس الحفيظة وعدم الفرار. فقد اخرج ابو سفيان النساء وكن خمس عشرة امرأة ليحرضن الرجال

(⁷⁴) سورة النور: آية 62.

(⁷⁵) «الكامل في التأريخ»، ج 2 ص 111.

على القتال، وحتى لا يفروا من ساحة القتال. فجاء عمرو بن العاص بزوجه «ريطة»، وأبو سفيان بزوجه «هند» آكلة الاكباد. وكان مع النساء « غمرة بنت علقمة الكنانية » وهي التي حملت لواء المشركين بعد مقتل التسعة الذين قتلهم علي (ع).

وتلك الظاهرة تدل على ان هزيمة المشركين كانت قضية محتملة جداً في تفكيرهم، على افتراض وجود علي (ع) مقاتلاً في المعركة. واخراج النساء كان مخالفاً لاعراف العرب، لان الهزيمة كانت تعني اسر النساء، وهو امر لا يمكن تحمله حتى من قبل المشركين انفسهم.

ج- كانت خطة النبي (ص) في حفظ عسكر المسلمين من الخلف مُحكمة، الا ان الرماة عصوا اوامر رسول الله (ص)، فكان ما كان من الجراح والخسائر التي اصابت المسلمين. ولا شك ان تلك القضية كانت ايضاً من خصائص معركة أحد. لان معصية بذاك الحجم لم تحصل في أي معركة من معارك الاسلام، إذا استثنينا الفرار من المعركة في حُنين. وهذا دليل على عدم عمق إيمان بعض الناس بالقتال فضلاً عن عدم ادراكهم لمعاني التضحية ودورها الحاسم في نصر الدين.

د- ان الفرار السريع الذي حصل من قبل المسلمين الذين صاحبوا رسول الله (ص) عند سماعهم بمقتل النبي (ص) له دلالات تثبت سطحية إيمانهم بالاسلام وعدم وصوله حدّ اليقين، مع ان ملازمتهم لرسول الله (ص) كانت تقتضي اليقين بصحة الرسالة وصدق قائدها.

2- معركة أحد: الآثار

اختلفت معركة أحد في وظيفتها، واسسها، ومقدار الدمار الذي خلفته على المشركين، وحجم الدرس الذي تعلّمه المسلمون منها عن غيرها من المعارك.

فهي على الرغم من الخسائر الفادحة التي تكبّدها المسلمون لم تنههم عن الدخول في معارك أخرى. فالميزان العسكري المادي للقوى المتصارعة لم يكن هو المقياس في النصر او الهزيمة بل كان المقياس: الايمان الحقيقي في القتال. وكان الامام (ع) يمثّل ذلك الايمان الحقيقي في القتال بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

وقد ترتب على معركة أحد والبطولة الشخصية للعترة الطاهرة (ع) آثار في غاية الاهمية على صعيد مستقبل الاسلام. ومن تلك الآثار:

أ - التنظيم النفسي: لقد افرزت المعركة ان للمتغيرات النفسية كالخوف والقلق والهروب من ساحة المعركة والتخلّف عن الزحف تأثيراً مهماً على ارباك الانسجام الفكري والنفسي للمقاتلين. فالمعركة _ بالدرجة الاولى _ ليست بين افراد من طرفين بل هي صراع ديني وفكري بين مجتمعين. وبالتحديد بين مجتمع

الاسلام ومجتمع الشرك. واي ارباك نفسي لمجتمع الاسلام يعني هزيمة نفسية للمسلمين لا يمكن تحملها في تلك الظروف الحرجة.

ب- تنظيم المسؤوليات: ان تصرف جنود عبد الله بن جبير الذين اجلسهم رسول الله (ص) على حافة جبل أحد لضبط المشركين، وعصيانهم للأوامر النبوية وتركهم مواقعهم سعيًا نحو الغنائم كان درساً قاسياً في معنى المسؤولية الشرعية والعقلية. فقد كان من وظيفة هؤلاء البقاء في اماكنهم وعدم تركها. ولكن الانحلال من المسؤولية الاجتماعية عند هؤلاء أدى الى انحلال اعظم في المسؤوليات الدينية. ولذلك فان معركة أحد كانت درساً في تنظيم مسؤوليات المقاتلين وعدم مخالفتهم لاوامر رسول الله (ص).

ج - تنظيم العلاقات الداخلية: ان الحرب تتطلب علاقات دينية متشابكة بين القائد وجنوده. فكان علي (ع) يمثل لاوامر رسول الله (ص) حرفياً. فعندما يأمره: احمل عليهم: كان لا يتردد في ذلك بل كان يحمل عليهم بشدة ويفرق جمعهم، كما قتل عمرو بن عبد الله الجحفي، وشيبة بن مالك وغيرهم. اما الذين فروا من المعركة فقد كشفت الحرب هشاشة ايمانهم بالاسلام. بل كشفت في الواقع مقدار حرصهم على مصالحهم الشخصية وحبهم للحياة من الذل على الموت مع الشرف والشهادة.

د - الشجاعة الفردية: اثبتت الشجاعة الفردية انها من العوامل الحاسمة في معارك الاسلام الاولى. فالتقنية العسكرية في ذلك الزمان المتمثلة بالسيف كانت تسمح للشجاعة الشخصية بالظهور بصورة بارزة. نعرض مثلاً لذلك. فقد كانت راية قريش مع «طلحة بن ابي طلحة العدي» من بني عبد الدار فقتله علي (ع)، وأخذ الراية من بعده «ابو سعيد بن ابي طلحة» فقتله علي (ع) وسقطت الراية فأخذها «مسافع بن ابي طلحة» فقتله علي (ع)، حتى سقطت تسعة نفر من بني عبد الدار حتى صار لوائهم الى عبد لهم اسود يقال له: «صواب» فانتهى اليه علي (ع) فقطع يده اليمنى، فأخذ اللواء باليسرى فضرب يسراه فقطعها فاعتنقها بالجذماوين⁷⁶ الى صدره، ثم التفت الى ابي سفيان فقال: هل عذرت في بني عبد الدار؟ فضربه علي (ع) على رأسه فقتله. وسقط اللواء فأخذتها غمرة بنت علقمة الكنانية فرفعتها.

وكان ذلك قبل انقضاء خالد بن الوليد على عبد الله بن جبير وجماعته القليلة، وقبل الاتيان على المسلمين من اديبارهم.

لقد كانت الشجاعة الفردية عاملاً من عوامل قلب التوازن العسكري، وتحويل ضعف المسلمين وقتلتهم الى نصر مؤزر في المرحلة الاولى من الحرب. وإيقاف الهزيمة من تحقيق جميع اهدافها في المرحلة الثانية من

(76) تنحية جذماء أي: باليدين المقطوعتين.

معركة أحد. وفي هذه المعركة بالذات، قامت شجاعة علي (ع) الفردية البطولية بايقاف تداعيات تلك الهزيمة من تحقيق اهدافها، وهو المنع من قتل رسول الله (ص) من قبل المشركين على اقل التقادير.

علل الحرب وبدائلها

تختلف علل الحرب ومقتضياتها من معركة لأخرى. ولا يمكن تفكيك طبيعة المقاتلين واخلاصهم وقوة يقينهم، عن الآثار الناتجة عن سلوكهم الحربي. واذا كان الاسلام يحث المؤمنين على قتال المشركين بتلك الحماسة والقوة، فانه يستند على قاعدة تفصح عن ان الحرب الابتدائية هي البديل الاخلاقي للسلم الذليل مع الشرك والوثنية وعبادة الاصنام.

1- هل يمكن النظر لكل الحروب من زاوية واحدة؟

لا يمكن الاقرار ابدأ بأن لكل الحروب ابعاداً متساوية وعللاً متشابهة. فالحرب ليست ظاهرة تجريبية تحصل في كل مرة بنفس العوامل التي تحصل لحرب أخرى. فهي ليست تجربة كيميائية تضع فيها المواد المتفاعلة لتتفاعل ومن ثم تنتج المادة المطلوبة. بل ان لكل حرب خصائصها ومظاهرها واسبابها. ومن هذا النمط نستطيع ان ننظر _ بعين البصيرة _ الى معركة أحد، فهي تختلف عن بدر الكبرى والخندق وخيبر. لانها وقعت في مكان وزمان مختلفين عن المعارك الاخرى، بل لان نظامها قد اختلف بسبب عصيان بعض الرماة اوامر رسول الله (ص). فقد ارتكب هؤلاء الرماة تلك المعصية في وقت كان المفترض بهم طاعة قائدهم (ص)، وهم يحمون ثغر جيش المسلمين على جبل أحد.

واذا كان خللاً من هذا الحجم قد أوقع تلك الخسارة بالمسلمين، فما بالك لو كانت شخصية كشخصية علي (ع) غائبة عن الساحة العسكرية، فكيف كان حجم الخسارة؟ لا شك ان وجود بطل الابطال (ع) في الميدان منافحاً عن رسول الله (ص) ومدافعاً عن الدين الحنيف ومقاتلاً المشركين كان قد جنّب الاسلام حجماً عظيماً من الخسارة في وقت انهزم فيه المقاتلون عن ساحة المعركة. وقد امر الله سبحانه بحرمة الفرار وقت الزحف، فقال: (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير)⁷⁷. فيبين القرآن المجيد حكماً شرعياً خاصاً بالمعركة وهو حرمة استدبار العدو واستقبال جهة الهزيمة ؛

(⁷⁷) سورة الانفال: آية 15 - 16.

وخطاب تلك الآية عام غير مخصوص بوقت او بمعركة معينة. وعليه يتحمل المنهزم من القتال غضباً من الله سبحانه فيكون موعده جهنم وبئس المصير. وقال تعالى في خصوص واقعة أحد: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانَ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا...) ⁷⁸.

ولكنهم فروا على اية حال، ولا يثبت مع رسول الله (ص) الا الامام (ع) والقلة القليلة من المؤمنين. فالخطأ البشري في ساحة المعركة مهما كان صغيراً، يكلف الجيش المقاتل خسارة عظيمة. وقد كان خطأ بعض المسلمين ممن عصوا رسول الله (ص) مدمراً وقاتلاً بحيث كان الخطر مهيمناً على وجود الدين كله. ومنع أخطاء من ذاك القبيل مهمة ايضاً في منع حدوث خسارة من ذاك الحجم.

ان الخسارة في الحرب لاي طرف، تعني تحطيم شبكة العلاقات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية للطرف المنهزم. وهذا يعني ان الفشل في تحقيق النصر العسكري او النفسي على المشركين هو تحطيم للمباني التي قام عليها الدين من طاعة رسول الله (ص) والمواخاة الاجتماعية والعدالة الحقوقية والعبادات. ولذلك، فاننا لا نستطيع تفكيك طبيعة النظام الديني عن جيشه ومقاتليه من جهة ونظام الشرك وجيشه ومقاتليه من جهة اخرى. فالمقاتلون في كل طرف يعكسون الصورة الحقيقية لمجتمعهم ونظامهم السياسي والديني والاجتماعي.

وفي ضوء ذلك نفهم ان الاختلال في ميزان القوى بين الايمان والشرك الذي احدثته معركة أحد كان خطيراً للغاية. لكنه كان مؤقتاً، ذلك لان الاسلام كان يملك طاقات هائلة كامنة في نفوس اتباعه والمؤمنين به. فاذا كانت شجاعة علي (ع) قد منعت هزيمة الاسلام، وحافظت على حياة رسول الله (ص)، فانها كانت قادرة ايضاً على حصد النصر المؤزر في معارك قادمة

2 - ما هو البديل الاخلاقي للحرب؟

ربما يتسائل المرء: هل هناك بديل اخلاقي يستطيع ان يحل محل الحرب، والدمار الشامل التي يلحقها؟ والجواب على ذلك هو انه ليس هناك بديل اخلاقي عن الحرب غير الحرب. فالحرب الدفاعية التي يشنها المسلمون هي البديل الاخلاقي للحرب الهجومية التي يشنها المشركون. والحرب الهجومية من قبل المسلمين هي البديل الاخلاقي لتترك المشركين منغمسين في شركهم وفسقهم وفسادهم في الارض. والى ذلك اشار عز وجل: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ

(⁷⁸) سورة آل عمران: آية 155.

الحقّ من الذين اوثوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون⁷⁹، (فإذا انسَخَ الأشهُرُ الحُرْمُ فاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حيث وجدْتُمُوهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كُلَّ مَرصِدٍ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفورٌ رحيمٌ)⁸⁰، (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلوؤنكم من الكُفَّارِ وليجدوا فيكم غلظةً واعلموا أن الله مع المتقين)⁸¹.

فلا شك ان من الوظائف المشروعة للمسلمين في حرب هجومية يقوم بها الاعداء هو القيام بمهمة الدفاع. فالدفاع عن الدين والنفوس والعرض والوطن هو الحد الأدنى الذي يتطلبه ميدان المعركة. والدفاع يعني مقاتلة العدو قتالاً شديداً حتى يتم ابعاد الخطر عن الاسلام او يتم افناء القوة المهاجمة. ومن الطبيعي فان الفرار لا يعدّ اسلوباً من اساليب الدفاع. بل هو الهزيمة بعينها، ولذلك فقد نهى القرآن الكريم التولي بعد الزحف، فقال: (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار)⁸².

وتؤيده العديد من الروايات. «منها»: ان امير المؤمنين (ع) قال مشيراً الى الآية الكريمة السابقة: «ان الرعب والخوف من جهاد المستحق للجهاد والمتوازيين على الضلال، ضلال في الدين وسلب للدنيا مع الذل والصغار، وفيه استيحاب النار بالفرار من الزحف عند حضرة القتال».

و«منها»: ان ابا الحسن الرضا (ع) كتب في جواب بعض المسائل: «حرّم الله الفرار من الزحف لما فيه من الوهن في الدين، والاستخفاف بالرسول والائمة العادلة، وترك نصرتهم على اعدائهم، والعقوبة لهم على ترك ما دعوا اليه من الاقرار بالربوبية واطهار العدل، وترك الجوار وامانة الفساد، لما في ذلك من جرأة العدو على المسلمين، وما يكون في ذلك من السبي والقتل وإبطال دين الله عزّ وجلّ وغيره من الفساد»⁸³.

ومن ذلك نستنتج بان الحرب ومقاتلة الاعداء، دفاعاً أو هجومياً، لا يتطلب قراراً سياسياً، بقدر ما يتطلب حكماً شرعياً وقراراً دينياً يتخذه الدين. لان النبي (ص) كان يدرك الموضوع الخارجي والحكم الشرعي وملاكه. وقد كان (ص) يستمد ذلك من الوحي والامداد السماوي.

ان معركة أحد رسمت الصورة الواضحة وهي: ان تغيير عقيدة الانسان من الشرك الى الايمان لا يتم عن طريق السلام والطرق السلمية، بل لابد من الحرب. واذا لم يفكر المسلمون بالهجوم، فان المشركين سوف يبدأون بالهجوم على المسلمين. فالمعركة اذن معركة بقاء او فناء لاحد الطرفين. فلا يمكن الغاء الحروب من

(⁷⁹) سورة التوبة: آية 29.

(⁸⁰) سورة التوبة: آية 5.

(⁸¹) سورة التوبة: آية 123.

(⁸²) سورة الانفال: آية 15.

(⁸³) «علل الشرائع» - الشيخ الصدوق. باسناده عن ابن شاذان ان الامام الرضا (ع) كتب اليه فيما كتب من جواب مسائله.

الخريطة الاجتماعية للبشرية كما انه لا يمكن الغاء الامراض من الخريطة الصحية للبشر. فالامراض تحتاج الى علاج يتمثل بالدواء، كما ان الشرك يحتاج الى علاج من اجل ان يُجتثَّ من جذوره الفاسدة، يتمثل بالحرب. اذن ليس هناك من بديل في التعامل مع المشركين غير بديل الحرب.